

Source : AN-NAHAR  
 Date : 24.7.93....  
 Photo No. : 186.....

## الاختلاف

لبنان في السياسة الفرنسية (٢)

# الفرنسي والمعروف عنه

لم يغب التحول الحاصل في السياسة الفرنسية عن اللبنانيين. وكان، على العكس، في أساس المقوله الشعيبة التي شاعت بين المسيحيين في بداية الصراع اللبناني والتي تهم فرنسا ببيع لبنان، أي لبنان المسيحي في مقابل النفط. وكانت هذه المقوله تكتسب صدقية ظاهرة من الانفتاح الجديد بين فرنسا ودول الخليج، بعد حرب اوكتوبر وزيادة اسعار النفط. الا ان رد الموقف البادي الفرنسي في لبنان الى اسباب نفعية خطأ فادح لاسيما ان دول الخليج كانت وقتئذ وراء الفريق المسيحي. مرد الجياد هو ببساطة ان فرنسا، وان كانت تفرد منزلة خاصة للبنان ول المسيحيه، فهى تضعه في اطار سياسى اكبر كان سبقت بالضرورة لو انها انحازت الى فريق ضد آخر، مهددا تاليا "الاختلاف الفرنسي". هذا بالإضافة الى ان نقيس توجهات الرأى العام الفرنسي في تلك الحقبة

في المقابل، فإن وضعية فرنسا الجديدة كمديقة للعرب هي التي اتاحت لها المجال لمحاولة التوسط بين الافرق، اللبنانيين من جهة، والطرف المسيحي المقاتل وكل من الفلسطينيين والسوريين من جهة أخرى. كانت تلك مهمة موريس كوف دي مورفل ١٩٧٥ ووجرج غورس في تشرين الثاني ١٩٧٥ بتكليف من الرئيس جيسكار بيستان. وهي، وان لم تتوصل الى نجاح باهر، فإنهما على الأقل ساعدت في التحضير لزيارة بيار الجيل الشهيرة الى دمشق في كانون الاول ١٩٧٥.

كيف انتهت اذا السياسة الفرنسية الى تدخل عسكري في لبنان؟ بدأ التحول خجولا في عهد جيسكار بيستان، على رغم التزام هذا الاخير سياسة سلفيه ومحاولاته الناجحة لدعيمها اوروبا.

تابع في هذه الحلة الثانية الأخيرة نراسة الزميل سمير قصیر حول تاريخ السياسة الفرنسية في لبنان.

لا شك ان ديفول، المتميز بوعيه الحاد للتاريخ الفرنسي وتراث السياسة الفرنسية، كان يتأثر بالمفهوم التقليدي الشائع الصداقة بين فرنسا وبلدان، بما يترتب عليه من مسؤولية للأول بإزاء الثاني، لجهة ضمان ليعومته وحدوده. الا انه لم يكن ينظر الى هذه المسؤولية في معزل عن سياسته العربية. بل على العكس، كانت تلك السياسة تشكل اساسا امنا لها. وفي اي حال، لم يكن تقليد الصداقة بين اللبنانيين، او تعبير أدق، تقليد الصداقة بين فرنسا و المسيحي لبنان، بعد التاريخي الوحيد الذي استعاده ديفول. بل كانت سياسته الجديدة تتأسس على نظرة تاريخية رحمة تعرف من تراث السياسة الفرنسية، فتسعي في أن واحد اشكالية "التحالف" بين زمرة الزبقة والعلال، وهو التعبير الذي اطلق على العلاقة بين فرنسوا الاول وسليمان القاضي، وشكالية السياسة "الاسلامية" التي انتبهت في القرن التاسع عشر، هذا فضلا عن مفهوم حماية مسيحيي الشرق. ويمكن المرجع هنا الى ما نقله الرئيس صائب سلام عن خليفة ديفول، الرئيس جورج بومبيدو. يروي سلام انه عندما زار بومبيدو عام ١٩٧٦، نقل اليه شكوى المسلمين اللبنانيين القديمة من الافضلية المعطاة من فرنسا الى المسيحيين. فما كان من بومبيدو الا ان اجاب: اكم اود لو استطيع ان اقنعك بان فرنسا قوة اسلامية اكثر منها مسيحية."

الغرب

## سعير قصير

محطات هذا التحول هي الآتية:  
١- اقتراح إرسال قوات فرنسية بعد اتساع القتال في أيار ١٩٧١.

٢- المشاركة في قوة الأمم المتحدة في جنوب لبنان، التي تحولت عينًا على هذه القوة بدل أن تكون عنصر دعم لها كما كان يرجو الفرنسيون واللبنانيون.

٣- زيارة الرئيس الياس سركيس إلى باريس، في تشرين الثاني ١٩٧٨، التي أخذته ميتران لم ينبع من عقيدة ثانية ولا من نظرية متكاملة لوضع لبنان. بل كان هذا التحول ناتجًا من تضافر عوامل عدة، بالإضافة إلى ما أسلفنا عن فزعة التدخل الناجمة عن تفكك الوضع العربي، ندد.

٤- الرابط بين تطوير العلاقات الثنائية الفرنسية - الفلسطينية والموقف الفلسطيني في لبنان، وهو أحد العوامل التي حالت دون دعوة ياسر عرفات إلى زيارة باريس في عهد جيسكار ديفستان.

٥- التحرك الافت للسفير لويس دولامار خلال معركة زحلة، مع ملاحظة أن هذا التحرك تزامن مع الحملة الانتخابية الرئاسية في فرنسا.

كيف يفسر هذا التحول؟  
لا يمكن وده إلى اعتبارات شديدة التحديد، كالعداء لسوريا، وهو طرح غير صحيح، أو النزعة الاطلسية عند جيسكار ديفستان، وهي نزعة لم تمنعه من معارضة الولايات المتحدة في رفضه منطق الدل الممنفرد. فيرأينا أن التفسير الصحيح لا يذلو من التعقيد، وهو يقوم على اعتبار سياسة فرنسا العربية انعكاساً لحال العالم العربي. فعندما تكون مصر محور العالم العربي، تصبح حكماً المحاور الرئيسي

لفرنسا. أما عندما يفتقد العرب القطب الذي ينظم اصطدامهم، سلباً أو إيجاباً، فتشعر فرنسا، وبفعل تشعب علاقاتها الثنائية مع الأطراف العرب، أنها مدعة إلى الدخول في اللعنة من دون وسيط، ومن ثم إلى تحولها طرفاً فيصراعات العربية - العربية كما حصل في عهد ميتران الذي كرس التحول في السياسة الفرنسية جبال العالم العربي عموماً ولبنان خصوصاً.

يطول البحث ويتشعب إذا ما شئنا ساكتفي باشارات سريعة. وأمامها على الارجح أن التحول الذي أحدثه ميتران لم ينبع من عقيدة ثانية ولا من نظرية متكاملة لوضع لبنان. بل كان هذا التحول ناتجاً من تضافر عوامل عدة، بالإضافة إلى ما أسلفنا عن فزعة التدخل الناجمة عن تفكك الوضع العربي، ندد.

١- توجيه ميتران الاطلسي الداد أو بتغيير ادق نزعته المزمنة إلى محاورة الولايات المتحدة، في الوقت الذي كانت الموجة الريفانية تدفع للعوده إلى سياسة القوة في العلاقات الدوليّة.  
٢- انجازه البديهي إلى جانب إسرائيل.  
٣- رغبة ميتران في الإبقاء على السياسة العربية في جانبها الذليجي.  
٤- وقوف فرنسا، على رغم تحفظات ميتران، إلى جانب العراق في حربه مع إيران.  
٥- تحليل قام به وزير الخارجية كلود شيسون في أوائل العهد يقضى باعتبار سوريا على طرف نقیص مع فرنسا في الساحتين اللبنانيتين والفلسطينية في آن معاً.  
٦- الإफضالية المعطاة إلى ما يسمى "الدبلوماسية الموازية" على المنع التلقدي المتبع من طرف وزارة الخارجية، في عودة لافتة إلى ممارسة الجمهورية الرابعة.

٧- تبدل الاحوال الفكرية في فرنسا،

والغرب عموماً، مع صعود ليديولوجيا مقاومة العالم الثالث وذات نزعات صلبية. في طبيعة الحال، لم تجتمع دوماً تلك الاعتبارات. لذلك، لم تكن السياسة المتبعة في لبنان ثابتة. وقد مررت هذه السياسة في ثلاث مراحل:  
١- مرحلة ١٩٨١ - ١٩٨٣ التي بدأت بمباركة فرنسية لمشروع الاجتياح الإسرائيلي ثم باعتراض على حجم هذا الاجتياح. وكانت البرز بخطاباتها التدخل العسكري إلى جانب الولايات المتحدة، في فترة أولى، لحماية خروج المقاتلين الفلسطينيين، وفي فترة ثانية تلت مجزرة صبرا وشاتيلا، لحماية المدنيين، وهي مجملة ما ثبت أن تحولت مؤازرة للرئيس أمين الجميل في فرض سلطته، ثم تورطاً في الحرب الأهلية. كان معنى هذا التدخل، من وجهة النظر الفرنسية، أن فرنسا انجرت إلى سياسة لم تكن تتوافق عليها بالضرورة، من دون أن تسمح لها مواكبة الولايات المتحدة، كما كان يرجو المسؤولون الفرنسيون، بالمحافظة على ثقونها في لبنان. لا بد من التذكير هنا بالمرارة التي استقبل بها إركان وزارة الخارجية الفرنسية، المعارضون أصلاً ل/goto بـ ميتران، كسر الاختكار الفرنكوفوني لمنصب وزير الخارجية في لبنان، مع تعين الدكتور ايلى سالم.  
لكن الدهش، أيضاً من وجهة النظر الفرنسية، أن ميتران ما ثبت أن تخلى عن هذا النهج بعد عملية ٦ شباط ومؤتمر لوزان وفتح قنوات اتصال جديدة مع حركة امل والحزب التقديمي الاشتراكي. وبذا فشل السياسة الفرنسية في شكل ساطع عندما توجه إلى دمشق، في تشرين الثاني ١٩٨٤، بعد ستين من حرب غير معلنة بين البلدين. ويدرك التوقيع هنا بأن ميتران كان قد امترن بدور سوريا المميز في المنطقة، أي يدورها المميز في لبنان، في رسالة

ووجهها إلى الرئيس حافظ الأسد في ١٠ شباط ١٩٨٤.

٤- المرحلة الثانية تمتد بين ١٩٨٤ و ١٩٨٨ . وقد تميزت هذه المرحلة، التي تزامنت مع ضعفه الحكم في فرنسا، بعد هبوط شعبية بيتران وخلال تجربة المساكنة، تميزت بالتخلي عن ادعاء لعب دور ملائش في لبنان كما في مجال الصراع العربي - الإسرائيلي. وزادت من حدة التراجع البادي على السياسة الفرنسية ازمة الرهائن والاتباسات العديدة التي تجتمت عندها، في العلاقة مع ايران او في التعاطي مع الساحة اللبنانية، وخصوصا مع القوى الموالية لإيران او التحالف معها.

٥- المرحلة الثالثة هي المرحلة العونية، اذا جاز التعبير. وهي بدورها، لم تخل من الالتباسات الناتجة اساسا من عدم قدرة الحكم الفرنسي على حسم امره. فكان من جهة مدفوعا الى مؤازرة العماد عون، من دون ان يكون مرد هذا الاندفاع تبلور نظرية جديدة للوضع اللبناني. ولعل التفسير الاصح لهذه الظاهرة تفسير ميكانيكي قوامه ان ظهور ازمة حادة تسترعى اهتمام الرأي العام الفرنسي صار يتغير بشكل شبه عفويا نزعة الحكم الفرنسي الى التدخل، بعد ان ارسى تراكم التجارب المماثلة نوعا من التقليد. وقد زاد من حدة هذه النزعة

وتحده المقياس، منذ ان ادرك الفرنسيون في بداية الحرب، ان مقارنته لا تستقيم اذا لم يؤخذ في الاعتبار الانشطار الاهلي الطائف في لبنان.

قلنا بداية انه لا يمكن فهم السياسة الفرنسية حيال لبنان اذا لم ينظر الى وضعية فرنسا العالمية في اللحظة التي تنتفع فيها هذه السياسة، واذا لم تترجم في اطار سياساتها الشاملة في محيط لبنان، ليس ادل على ذلك الا ما يحصل منذ عامين. ما تعنيه هو انه لم تجد توجيه سياسة فرنسية حيال لبنان لأن فرنسا تخلت، وبتشييه اجتماع قياداتها السياسية والديبلوماسية، عن سياسة عربية متسقة. وما هذا التخلی

بدوره الا عزوف عما سمي "الاختلاف

الفرنسي"؛ تلك البدعة العقبرية التي ادرك

شارل ديغول كيف يوظفها من اجل تجاوز

وضعيته بلده كقوة متوسطة المحور.

اما التحركات الفرنسية العديدة التي يمكن رصدها في الآونة الأخيرة بإذاء لبنان، لاسيما زيارة جاك شيراك الى بيروت، فإنها لا تشكل سياسة. وفي اعتقادنا أنها تخضع الى حسابات براغماتية وشخصية ليس الا، وتتفق بالتالي التقل والمعنى اللذين كانت ستتميز بهما لو أنها اندرجت في اطار سياسة خارجية متسقة وفاعلة على الصعيد العالمي.

حصول الازمة في وقت كان ميتران قد استعاد مبيته بعد اعادة انتخابه، وتفرغ للشؤون الخارجية. كما ان قابلية اليممور الفرنسي لمفهوم "واجب التدخل" الذي طرجه بريان كوشينر عضو الحكومة الفرنسية آنذاك كان من شأنه تشجيع الحكم على المضي قدما. اخيرا لا بد من الاشارة الى ان الطابع الحاد والتسيطي لشعار العماد عون في حربه زاد من قابلية الرأي العام لعباركة خطوة الحكم ومن رغبة ميتران في استثارة رضى الرأي العام، لاسيما ان عون عرف بدوره كيف يوظف المعارضة اليممية الفرنسية.

لكن الحكم الفرنسي كان، من جهة اخرى، عاجزا عن المضي بسياسته الى نهايتها المنطقية، وذلك بسبب جملة من الاعتبارات الاميركية وال سعودية، ناهيك عن الاعتبارات الامنية، مع التنويه بان هذه الاعتبارات المعروفة، على الاقل بعد الطائف، لم تنه عن مجازاة العماد عون، ولا تنته عنهما ملامحة اتفاق الطائف مع الموقف الفرنسي الثابتة القائلة بضرورة تطوير النظام اللبناني. هكذا استمرت فرنسا عاما واكثر تمارس سياسة لا تستطيع ان تعبر عنها صراحة لأنها لا تقدر على عقليتها وفق معايير دبلوماسيتها. ذلك ان مفهوم السيادة، على اهميته، لم يكن ليشكل